المقدمة

يعني الوقف حبس الأصل وتسبيل الثمرة في أوجه الخير المختلفة، ورغم أنه لم يرد نص صريح عن الوقف في القرآن الكريم أو السنة المطهرة، من خلال آية صريحة أو حديث صريح، إلا أن إقرار الرسول (صلى الله عليه وسلم) للوقف وقيامه به من منطلق الصدقة الجارية، وإجراء الصحابة (رضي الله عنهم) له، جعل الوقف يصبح سنة فعلية، تسابق على القيام بها الخلفاء والأمراء والأغنياء من الرجال والنساء على مر العصور الإسلامية وعبر أرجاء الدولة الإسلامية من شرقها إلى غربها.

ورغم أن الأمم السابقة عن الإسلام قد عرفت الوقف كنظام ولم تعرفه اسماً، حيث ظهر الوقف على أماكن العبادة التي تمثلت في المعابد والكنائس، إلا أن ربط مفهوم الوقف بالصدقة الجارية في الإسلام، جعل الوقف يأخذ أبعاداً أخرى، بجانب الوقف على المنشآت الدينية، وجعله مجالاً لتنافس الراغبين في فعل الخير، كما أن إقرار الفقهاء لوقف المنقول والوقف الذري أو الأهلي، قد وسع من مفهوم الوقف، ومن ثم وسَّع من أغراضه، فما كان هناك أي مجال من مجالات الحياة إلا وللوقف فيها دوره الفاعل، في خدمة الجوانب الدينية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، بل وحتى السياسية.

ولأن الجوانب الحياتية للإنسان تدور أنشطتها في المباني والمنشآت المختلفة الوظيفة، فقد ارتبط العمران الإسلامي بالأوقاف منذ بداية تطبيق الوقف، من خلال

علاقة طردية، ازدهر فيها العمران كلما كان الوقف مزدهراً، واندثر فيها مع اندثار الوقف، أو تعطيله، أو حله، أو اغتصابه. بل لقد حرص الواقفون على أهمية الاهتمام بالمباني والمنشآت الموقوفة وتقديم عمارتها على أوجه الوقف الأخرى؛ مما جعل هذه المنشآت تستمر لفترات طويلة، وجعلت بعضها باقياً حتى الآن.

إن دور الوقف لم يكن القيام بالجانب الخيري في المجتمع المسلم وسد حاجات الفقراء والمحتاجين فقط، بل تعدى ذلك إلى المساهمة، ولو بشكل غير مباشر، في بناء سلسلة من المنشآت التي كانت أساسية في تكوين المدينة الإسلامية، حيث خدمت هذه المنشآت مختلف الجوانب الحياتية في المدينة الإسلامية، بل لقد ساهم الوقف في نشأة وتطور الكثير من المدن الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي الطويل.

ومن الجدير بالذكر أن دور الوقف لم يقتصر على وقف المباني والمنشآت من أجل أداء وظائفها المختلفة، بل امتد إلى تحديد كيفية أداء تلك الوظائف، وتوفير الأجهزة والمعدات والعناصر البشرية التي تمكن المنشأ من القيام بدوره، وكان ذلك عن طريق شروط الواقفين التي تضمنتها وثائق الأوقاف، بل إن تلك الشروط كانت بمثابة الأعراف التي اتفق عليها في الأوقاف التالية للمباني والمنشآت المتشابهة في الوظيفة.

ولم تتوقف الأوقاف عند وظيفة واحدة للمباني في المدينة الإسلامية، ولا عند جانب واحد من جوانب الحياة، بل شملت كل أنواع المباني والأنشطة الحياتية، فمن المساكن إلى المساجد، ومن المدارس والجامعات والكتاتيب إلى المباني التجارية والصناعية، ومن الأسبلة والسقايات والعيون والآبار إلى الترع والجسور والقناطر وبناء السفن، ومن المستشفيات والصيدليات إلى المباني العسكرية، ومن المرافق العامة كالطرق والحمامات إلى مباني المؤسسات والخدمات الاجتماعية، وهكذا.

ولقد تناولت بعض الدراسات والكتب المؤلفة والمحققة الإشارة إلى العلاقة بين الوقف والعمران، إلا أنه ومن خلال البحث، لم نجد ما كان منها شاملاً لإظهار هذه العلاقة وجوانبها المختلفة، وبيان الأنواع المختلفة التي ساهم الوقف في ازدهارها،

ولقد كان ذلك هو السبب الآخر لتأليف هذه الكتاب، وهو عمل مؤلف يشتمل بين دفتيه على بيان العلاقة بين الأوقاف وازدهار عمران المدينة الإسلامية. أما عن السبب الرئيس من وراء تأليف هذا الكتاب فكان محاولة إظهار الوقف والدعوة إلى إحيائه في المجتمعات الإسلامية المعاصرة التي أصبحت تعج بالمشكلات العمرانية والاجتماعية والاقتصادية التي يمكن للوقف أن يساهم بجزء كبير في حلها والتغلب عليها بحكم أنه نظام اجتماعي واقتصادي على درجة عالية من النضج الإداري والفني، يتكامل مع نظام الزكاة في دورها الاجتماعي والاقتصادي.

وتقع محتويات الكتاب في ثمانية فصول: يدرس الفصل الأول خلفية نظرية عن الوقف وعلاقته بالعمران، وقد ركز هذا الفصل بشكل أساسي على تقديم خلفية عن الوقف وبيان العلاقة الطردية بين الوقف والعمران. أما الفصول الستة التالية فقد شملت العلاقة بين الوقف والمنشآت المعمارية المختلفة؛ الدينية، والتعليمية، والثقافية، والطبية، والسكنية، والتجارية والصناعية، والعسكرية، ومنشآت المرافق العامة. وجاء الفصل الثامن في آخر الكتاب ليتناول الطرح الخاص بكيفية تفعيل دور الوقف في الحياة المعاصرة وبشكل خاص الجوانب العمرانية في المدينة الإسلامية.

لقد راعينا أن تكون النماذج والأمثلة التي توضح دور الوقف في ازدهار عمران المدينة الإسلامية متنوعة، ومن مناطق ومدن وبلاد مختلفة؛ حتى تكون الرؤية شاملة ومعبرة، وحتى تتضح الصورة العالمية التي كان الوقف يسعى إليها من خلال منظومة متكاملة تتعدى حدود الدولة الواحدة لتشمل الأمة الإسلامية جميعها. كما كان التسلسل التاريخي لنشأة كل منشأ من هذه المنشآت هو المحدد في ترتيبها داخل كل فصل من فصول الكتاب.

بقي أن أشير بالشكر والتقدير لأصحاب كل المؤلفات والأبحاث والمراجع التي أفادتني في تأليف هذا الكتاب، التي جعلت من كتابي استمراراً لجهودهم العظيمة في مجال دراسات الوقف، وخاصة منها تلك التي احتوت على معلومات قيّمة عن توثيق

وثائق الأوقاف، فقد وفرت عليّ الجهد المضني في دراسة تلك الوثائق، وهي ما عليه من قدم، بجانب الطريقة المكتوبة بها التي يصعب قراءتها بشكل واضح نظراً للكتابة بخط اليد، بالإضافة إلى ما هي عليه أيضاً من ركاكة في الأسلوب في بعض الأحيان، وتحتاج لفك طلاسمها، إلى متخصصين في علم الآثار بشكل عام وفي مناهج التحقيق والتوثيق بشكل خاص.

وأولاً، وليس أخيراً، الله أسأل أن أكون قد وفقت في إنجاز أهداف هذا الكتاب، وأهمها بالطبع الدعوة إلى إحياء سنة الوقف من جديد، وإحياء روحه في المجتمع من خلال الجوانب العمرانية، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثقل به موازيني يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. كما أسأله سبحانه وتعالى أن يوفق القادرين في التوجه إلى وقف الأوقاف المختلفة على مختلف جوانب الأنشطة الحياتية المتعددة، ووظائف المباني المختلفة؛ فهي من الباقيات الصالحات بإذن الله.

المؤلف